5

وجهة نظر

يونيو/حزيران 2014

وجه التنمية الإنساني:
الاستثمار في الناس

IFAD

الاستثمار في السكان الريفيين

وجه التنمية الإنساني: الاستثمار في الناس

عندما ننظر إلى العالم اليوم، نشاهد مكاسب تثير الإعجاب، غير أنها تقترن بتحديات مرعبة. فقد تمّ على المستوى العالمي بلوغ الغاية المنشودة في إطار الأهداف الإنمائية للألفية والمتمثلة بخفض معدلات الفقر المدقع إلى النصف، وذلك قبل خمس سنوات من موعد عام 2015 المحدد لذلك. وهناك الآن أكثر من 100 بلد في فئة البلدان المتوسطة الدخل، وهي تشمل بلداناً متنوعة كالبرازيل وليسوتو وفانواتو. ويقدر أن حصة البلدان النامية من سكان العالم من الطبقة المتوسطة سترتفع من 55 في المائة إلى 78 في المائة بحلول عام 2025.

ومع ذلك، يوجد أيضاً في بعض البلدان والأقاليم، ووسط البحبوحة المتزايدة، مستوى متنام من انعدام المساواة. وفي عام 2015، سيستمر 970 مليون شخص من سكان العالم في العيش في ظل الفقر – ومعظمهم في جنوب آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. كما يستمر وجود 842 مليون شخص في العالم يعانون من نقص التغذية المزمن. فتقلب أسعار السلع الأساسية يؤدي إلى الجوع لدى أفقر الفقراء، كما يؤدي إلى انعدام الاستقرار في الأسواق والمجتمعات. ويلقي تغير المناخ وتدهور البيئة بظلالهما القاتمة على جميع مكتسبات الإنسان. ولابدّ لنا على هذه الخلفية من أن نواجه السؤال التالي: كيف سيتمكّن الجنس البشري من الاستمرار في إطعام نفسه وإعالتها في المستقبل.

وكما يتغير العالم فإن المشهد الإنمائي يتغير هو أيضاً – فقد تنبأ تقرير أصدره معهد التنمية الخارجية عام 2012 بحدوث "دمار خلاق" في صناعة المعونة، وهو دمار يتعين فيه على المؤسسات إما أن تتكيف أو أن تفقد أهميتها. هذا التقرير نفسه أعطى الصندوق تقديراً إيجابياً بالمقارنة بالمؤسسات الأخرى، الأمر الذي يعكس استمرار أهمية مهمة الصندوق وصلاحية نموذج أعماله، على الرغم مما يشهده هذا العالم المتغير من تحولات متواصلة.

لقد انقضى حتى الآن ما يقارب عشر سنوات على صدور إعلان باريس بشأن فعالية المعونة الذي دعا إلى مزيد من الملكية والتنسيق والمساءلة على المستوى القطري. وشهدت هذه السنوات تقدماً غير أنها شهدت أيضاً تغيرات كبيرة شملت فيما شملته انعدام الوضوح في توجهات المساعدة الإنمائية

الرسمية. إضافة لذلك أدى الدور المتزايد للمؤسسات الخاصة، والتوسع في الشراكات بين القطاعين العام والخاص، والتعاون بين بلدان الجنوب والتعاون الثلاثي، وإمكانيات الاستفادة من مليارات الدولارات من التحويلات المالية إلى البلدان النامية، كل ذلك، إلى تغيير شكل تفكيرنا حول التنمية. ويتضاعف التركيز في كل مكان على التدليل على الأثر والنتائج وإبراز ما تحققه الأموال المنفقة على التنمية من قيمة.

وفي وسط أوجه الغموض التي تكتنف الحاضر هناك أمر واضح للغاية: لابدّ للسكان الريفيين من تلقي المزيد من الاستثمارات إذا كان لنا أن نقضي على الجوع وعلى الفقر وأن نخلق عالماً أفضل وأكثر استدامة. هذه هي الرسالة التي يساهم الصندوق في تقديمها في سياق مناقشات خطة التنمية لما بعد عام 2015. فثلاثة أرباع أفقر الناس في العالم يعيشون في المناطق الريفية؛ والثغرة بين الأغنياء والفقراء إنما هي أساساً ثغرة بين سكان المناطق الحضرية وسكان المناطق الريفية. وتكتسي زيادة الاستثمار في المناطق الريفية أهمية أساسية في سياق التمكّن من سد هذه الثغرة. وتشدد على هذه النقطة دراسة أصدرها صندوق النقد الدولي مؤخراً: فقد وُجد أن انعدام المساواة في الدخل يمكن أن تؤدي إلى تباطؤ النمو الاقتصادي المستدام أو إلى تناقصه. ومن الواضح الجلي أن إهمال المناطق الريفية لا يضرّ بالسكان الريفيين وحدهم، فهو يكبح مسيرة البلدان والاقتصادات الوطنية.

ولكي يتمّ القضاء على الفقر والجوع، لابدّ من أن يصل النمو الشامل إلى المناطق الأكثر بعداً وتهميشاً – وهي المناطق التي يتوفر للصندوق فيها تحديداً ميزة مقارنة تعزى إلى ولايته الخاصة وإلى خبرة الأعوام الخمسة والثلاثين المتوفرة لديه. ولكن الصندوق اليوم هو غيره بالأمس؛ فنحن نتكيّف ونبتكر باستمرار للتمكّن من أداء مهمتنا على الرغم من البيئة المتغيرة. وقد أعدنا تصميم نموذج أعمالنا ووسعنا من حضورنا في البلدان التي نعمل فيها، الأمر الذي حقق نتائج أفضل؛ كما نعمل على استكشاف مصادر إضافية للتمويل، وهي مصادر تتمتع الشراكات مع القطاع الخاص بينها بمكانة هامة. على أن من الأهمية بمكان أيضاً أن نتذكر أن جانباً من التفكير الجديد اليوم – ويتمثل

أبرزه في التحرك بعيداً عن المعونة التقليدية باتجاه الاستثمار – إنما يتفق فعلاً مع ما كان عليه الصندوق دائماً: فهو مؤسسة مالية دولية لها وجه إنساني تضع الناس في المقام الأول.

إنجاح العمل الإنمائي لصالح الناس

يستثمر الصندوق في السكان الريفيين. على أن هناك تعقيدات تحيط بالسكان والمجتمعات المحلية التي يشكلونها. ولهذا بالذات فإن الصندوق يعمل على إيجاد حلول تتفق مع السياق، وهي حلول كثيراً ما تشمل الجوانب المتعددة للأوضاع الريفية المحفوفة بالتحديات، وتؤدي بالنتيجة إلى فوائد متعددة. فزيادة الغلال لا تقود إلى خفض فقر المزارعين إذا لم تتوفر إمكانية الوصول إلى أسواق يمكنهم أن يبيعوا منتجاتهم فيها. ولن تصبح التنمية شاملة للجميع إلا إذا توفرت إمكانية الحصول على المعرفة والموارد والفرص لجميع الناس، بما فيهم النساء والشباب.

ومراراً وتكراراً، أثبت المشاركون في المشروعات التي يدعمها الصندوق أن بإمكانهم، إن توفر لهم الدعم الصحيح، أن يغيروا أوضاعهم المعيشية، بل وأن يغيروا عالمهم نفسه. لقد توقف تعليم ماجو تيواري عند بلوغها الخامسة عشرة من العمر، حيث تزوجت زيجة مدبرة وهي لا تزال طفلة. أما الآن، وبعد 12 سنة وطفلين، فقد عادت ماجو إلى المدرسة. ليس هذا فحسب بل إنها دخلت في عالم الأعمال. فقد تمكنت من خلال مشروع موله الصندوق من الانضمام إلى تعاونية "ناري إكتا" (أي "وحدة النساء") في سوركيت في نيبال، حيث تعلمت كيف تزرع الخضروات وكيف تبيعها، وتمكنت من كسب ما يكفي لتغطية 40 في المائة من مصروف أسرتها فضلاً عن تكاليف التعليم. فالزراعة لم تقف عند مجرد إطعام الأسرة بل تجاوزت ذلك لفتح عالم الفرص الجديد: وتشعر ماجو الآن بالفخر لأن أسرتها كلها – هي وزوجها وابناها الاثنان – أصبحوا جميعهم طلاباً.

إن استثمارات الصندوق لا تكتفي بزيادة الدخل والناتج المحلي الإجمالي، فهي ترعى التنمية الاجتماعية أيضاً، الأمر الذي يعني في حالة ماجو مزيداً من المساواة والاستقلالية، سواء داخل الأسرة أو ضمن المجتمع المحلي. وقد شهدت ماجو بيئتها تتحول، وهي تقول: "كنا في الماضي نضطر إلى طلب كل شيء [من أزواجنا]". أما اليوم فقد أصبحت النساء يتمتعن بمزيد من الاستقلال. ومنذ أن بدأت النساء في كسب المزيد، بدأت تتغير "العادات السيئة" التي دأب الرجال عليها في المجتمع المحلي. وتتابع ماجو: "زوجي يساعدني الآن في المزرعة، بل ويساعدني أيضاً في أعمال المنزل. لقد كان الرجال في الماضي يلعبون الورق ويشربون ويقامرون، أما اليوم فهم جميعاً يساعدون خارج المنزل وداخله."

وتنبع الدراية الخاصة المتوفرة لدى الصندوق – على سبيل المثال الدراية بالتوسع في حقوق المرأة والفرص المتاحة أمامها وبناء منظمات المزارعين وتعزيزها وتمكين السكان الأصليين – من الالتزام بالناس وجعلهم مسؤولين عن تنميتهم بأنفسهم. وليس ذلك لأنه الطريق السليم فحسب، بل كذلك لأنه الطريق المؤدي إلى النجاح.

الوسيط الصادق

يستفيد الجميع عندما يستفيد فقراء الريف من التنمية، فالفائدة التي يجنيها الفقراء تحقق لجميع الناس مزيداً من الأمن الغذائي والتغذوي وإدارة أفضل للموارد الطبيعية وقدراً أكبر من المساواة وتحسناً في الاستقرار الاجتماعي. ويُعترف الآن على نطاق واسع بهذه الحقيقة، الأمر الذي يجعل الطلب على الدعم الذي يقدمه الصندوق يتجاوز كثيراً العرض المتاح.

فقد اكتسب الصندوق سمعة باعتباره وسيطاً صادقاً يمكنه أن يجمع بين السكان الريفيين والحكومة والقطاع الخاص والشركاء الإنمائيين وغيرهم من الجهات الفاعلة بهدف دعم التنمية التي تحقق الفائدة للجميع.

ويعني أن يكون الصندوق وسيطاً صادقاً أن ينظر في منظور كل شريك من الشركاء وأن ينشئ شراكات تتسم بالإنصاف وتحقق الربح في الوقت نفسه. كما يعني معاملة الناس كشركاء في التنمية وليس كموضوعات لها.

في سيراليون، كان هناك أرض مساحتها 700 000 هكتار تغطيها المستنقعات، وهي أرض يمكن استصلاحها وتحويلها إلى أرض زراعية، غير أن ما استُصلح منها بالفعل لم يكن ليتجاوز 1% من مساحتها. فمهمة الاستصلاح هائلة في أعقاب عشر سنوات من الحرب الأهلية التي دمرت نظم الزراعة وهياكلها الأساسية. غير أن مشروعاً يدعمه الصندوق أظهر ما يمكن أن ينشأ من إمكانات عندما تبدأ الانطلاقة بالناس. فقد استأجر المشروع مهندسين وتقنيين متقاعدين كانوا يعملون سابقاً في دائرة تنمية الأراضي والمياه في وزارة الزراعة والحراجة والأمن الغذائي في سيراليون. وأدى المشروع إلى تشغيل الشباب وإلى زيادة كبرى في غلال المزارعين ودخلهم. وبات المزارعون هم الذين يدفعون تكاليف خدمات المتعاقدين، مما يعني أنهم يستثمرون في أعمالهم وأرضهم وشباب مجتمعاتهم المحلية.

وعلى مستوى أكثر عمقاً، يعني تقديم المساعدة لبلد ما على الانتعاش من النزاع زرع الأمل في قلوب الناس ومساعدتهم – ولاسيما الشباب – ليتمكنوا من تصور مستقبل مختلف . وتتمثل إحدى الطرق المطبقة في سيراليون في نظام التعلم الخاص بتدابير المساواة بين الجنسين، وفيه تناقش النساء والرجال وأعضاء أسرهم الطرق التي يريدون بها أن يتطوروا كأسر وكمجتمعات محلية. وفي سياق ذلك، يتعلم المشاركون كيف يرسمون طريقهم نحو التغيير ونحو خلق مستقبل مختلف. وفي إطار نظام التعلم هذا، يعمد السكان الريفيون، من لم يتعلم في المدرسة أو لم يتعلم إلا قليلا، إلى العمل معاً لخلق عالم أفضل يعيشون فيه.

التحلي بالروح القيادية، وتحقيق النتائج

يتمتع الصندوق بالجرأة على الابتكار لأنه أنشئ على أساس فكرة راديكالية تطرح الأسئلة التالية: ما الذي سيحصل إذا توفرت للمزارعين الأسريين العاملين على قطع صغيرة من الأرض إمكانية الحصول على ما يحتاجون إليه من الخدمات والدعم لكسب ما يكفي لتحقيق معيشة لائقة؟ ما الذي سيحصل إذا أمكن الربط بينهم وبين أسواق أكبر بحيث يستطيعون أن يتحولوا إلى مؤسسات أعمال؟ ما الذي سيحصل إذا حصلوا على التكنولوجيا والمعرفة التي تمكّنهم من زيادة إنتاجهم وإنتاجيتهم؟ ما الذي سيحصل إذا أمكن تنظيمهم بحيث تمثل قطع الأرض الصغيرة، وقد توحدت، قدرات هائلة تستفيد منها الأسواق وتعتمد عليها؟ ما الذي سيحصل إذا أدى نشاطهم المتنامي إلى تنشيط الاقتصادات المحلية وإلى خلق فرص العمل الأخرى ضمن سلسلة التوريد الزراعي وخارجها؟

إنها أسئلة كثيرة. ولكننا خلال أكثر من ثلاثة عقود من العمل شاهدنا قصص نجاح لا تُعدّ ولا تُحصى وكلها تؤكد أن هذه الرؤية تتسم بالواقعية ويمكن أن تتحقق. فصغار المزارعين يمكن أن يشكلوا نسبة كبيرة من الفقراء والجياع، غير أنهم ليسوا مجرد موضوعات. إنهم عوامل وجهات فاعلة ويشكلون معاً قوة جبارة. ويمكنهم إن توفرت الأدوات المناسبة أن ينهوا الفقر والجوع.

ويمكن لأصحاب الحيازات الصغيرة أن يطعموا أنفسهم ومجتمعاتهم المحلية. ويمكن للمزارع الأسرية الصغيرة، إن توفر الدعم الصحيح لها، أن تدفع بعجلة النمو الاقتصادي التي تحقق الفائدة للبلد ككل، وهم بذلك يغذون الطلب في قطاعات الاقتصاد الأخرى ويخلقون فرص العمل خارج نطاق الزراعة. وهذا بدوره يفتح فرصاً تجتذب الشباب من الرجال والنساء ويخلق مجتمعات ريفية مزدهرة مفعمة بالحياة.

هل أصبحت المزارع الأسرية الصغيرة جزءاً من الماضي؟ أجل. وهل هي جزءٌ من المستقبل؟ بالتأكيد. فقد كانت المزارع الأسرية الصغيرة عبر التاريخ أساسية لبقاء الجنس البشري، ولم يتغير ذلك بفعل البذور المعجزة وبفعل إدخال الآلة في الزراعة. فهناك يد تنثر تلك البذور وعقل يشغل تلك الآلة. هناك التزام شخصي بتنمية الأشياء الخيرة – الحياة والأسرة والمستقبل والأمة. ويتمتع الصندوق بسجل نجاحات قوي في المناطق الريفية لأنه يفهم هذه المناطق وأهاليها. إننا نرحب بمستقبل ينضم فيه إلينا شركاء جدد، فضلاً عن الشركاء التقليديين، لجعل التحويلات الريفية حقيقة واقعة.

كانايو نوانزي

رئيس الصندوق الدولي للتنمية الزراعية

©IFAD/Carla Francescutti

الصندوق الدولي للتنمية الزراعية
Via Paolo di Dono, 44 – 00142 Rome, Italy
رقم الهاتف: 54591 06-39+ – رقم الفاكس: 5043463 06 39+
البريد الإلكتروني: ifad@ifad.org
www.ifad.org
www.ruralpovertyportal.org
ifad-un.blogspot.com
www.facebook.com/ifad
instagram.com/ifadnews
www.twitter.com/ifadnews
www.youtube.com/user/ifadTV

للاتصال
Sabel NDure-Barry
المساعدة التنفيذية لرئيس الصندوق
رقم الهاتف: 54592200 06 39+
s.ndure-barry@ifad.org

ISBN 978-92-9072-513-8
9 789290 725138
يوليو/تموز 2014